ثانيا

قسم الدراسة

١- تعريف موجز بالمؤلف وعصره

الفصل الأول

ا - الحالة السياسية.

ب- الحالة الاجتماعية .

حـ- الحالة الفكرية والثقافية .

obeikandi.com

obeikandl.com

ثانيا : الدراســـة

١- تعريف موجز بالطوفي وعصره:

الفصل الأول : ما له أثر في حياة الطوفي :

لابد أن يكون للبيئـة التي يعيش فيهـا المرء أثر واضح في شخصيتـه فيظهر ذلك في سلوكه وفكره وإنتـاجه واهتمامتـه، وتختلف البيئات مـن حيث تأثيرها، ونوعيـته، فبعـضها أقوى في التـأثير من البعض الآخـر، فالذي يعيش في البيـئة العلمية الجـدلية يكون أقوى ممن يعيش في غيرها من حـيث قوة المناظرة والمجادلة والإدلاء بالحجة والبراهين، والمران على إقناع الخصم أو إفحامه.

والبيئة التي تجـتمع فيها المؤثرات العلمية والسيـاسية والاجتماعية ينـشأ فيها نماذج من نوع خاص، استجابة للمؤثرات المختلفة.

ولهذا أرى أنه عند دراسة شخصية الطوفي لابد من التعرف على بيئته وعلى المؤثرات التي تسودها حتى يتسنى لنا الحكم على شخصيته بصورة واضحة ودقيقة.

وعند النظر في تاريخ حـياة الطوفي نجد أنه عـاش في الفتـرة من سنة سبع وخمسين وسـتمائة من الهجرة النبـوية وهو العام الذي ولد فيه إلى سنة سبـعمائة وست عشرة من الهجرة، وهي السنة التي مات فيها ولذلك فإن الحديث عن ما له أثر في حياته سيكون في نقاط ثلاث:

١- الحالة السياسية:

شهدت الفترة المتقدمة على ولادة الطوفي كثيرا من الأحداث التي أثرت على المسلمين تأثيرا مؤلما. فقد كانت هناك الحروب الصليبية الشرسة التي اشتعلت نارها في آخر المائة الخامسة من الهجرة، واستمرت نحو قرنين من الزمان[١]، أظهر فيها الصليبيون حقدهم على الإسلام والمسلمين، وغيرها من المدن الإسلامية في بلاد الشام والأندلس، واشتبك معهم المسلمون في معارك كثيرة في بلاد الشام ومصر وأفريقية وغيرها.

وقد ذكر المؤرخون عدة أسباب لهذه الحروب منها:

١- تدهور الحالة الاقتصادية في أوربا في القرن الخامس والسادس الهجريين، مما حدا بالنصارى إلى الزحف على بلاد أفريقية والشام[٢].

٢- استنجاد صاحب القسطنطينية "الأرثوذكسي" بملوك أوربا النصارى ضد السلاجقة الذين فرضوا عليه الضرائب، على أن يتنازل عن أرثوذكسيته[٣].

٣- أن بعض حجاج بيت المقدس من النصارى كانوا يلقون سوء معاملة من المسلمين أثناء وجودهم في القدس، وكان منهم "بطرس السائح أو الناسك" الذي اتجه إلى البابا "أوبانس الثاني" وصور له تلك الحال، وطلب منه تخليص أرض المسيح من أيدي المسلمين، حتى ألهب حماسهم لذلك[٤].

---

(١) ابتدأت الحروب الصليبية سنة ٤٩١هـ باستلاء الإفرنج على مدينة أنطاكية بعد حصار شديد، وانتهت بفتح الملك الأشرف خليل المملوكي لقلعة الروم في غربي الفرات سنة ٦٩١هـ.

(٢) انظر الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ١/ ٢٩٢-٢٩٤.

(٣) انظر السابق نفس الموضع، والأرثوذكسي: القائل بالتجسد.

(٤) انظر الكامل لابن الأثير -/ ٢٧٢١.

٤- ولكن هناك سبب رئيس جدير بالمعرفة أشار إليه ابن تيمية[١] ـ رحمه الله تعالى ـ في رسالته «الفرقان بين الحق والباطل» ص ١٤٥ ط المدني بالقاهرة، قال: "فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول، سلطت عليهم الأعداء، فخرجت الروم النصارى إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة... إلى أن قال: "وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار والنصارى والمنافقين الملاحدة" اهـ.

ولعل تلك الأسباب مجتمعة هي التي سببت هذه الحرب غير أنها كانت عقدية قبل أن تكون اقتصادية: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾[٢]

وكانت حال المسلمين السياسية طوال فترة الحروب الصليبية وقبلها عاملا مشجعا لاستمرار حرب النصارى الإفرنج، فقد انشغل الحكام المسلمون بالتناقس على الملك وضرب بعضهم بعضا من أجل ذلك؛ بل وصل الأمر إلى أن بعضهم كان يعطي بعض التنازلات للنصارى في بعض المدن والمناطق مقابل حمايته أو إعانته على أخيه المسلم الذي ينافسه على الملك[٣].

واستمرت هذه الحروب إلى سنة ٦٩١هـ، أي قبل وفاة الطوفي بست وعشرين سنة.

---

(١) ستأتي ترجمة ـ إن شاء الله ـ في شيوخ وتلامذة الطوفي.

(٢) سورة البقرة: ١٢٠.

(٣) من هؤلاء مثلا: الصالح إسماعيل المعروف بأبي الخميش المتوفى سنة ٦٣٨هـ فقد استعان بالإفرنج وأعطاهم مدينة صيدا، وقلعة الشقيف (انظر طبقات الشافعية الكبرى ٥/ ٨).

وليست الأحداث السياسية في عصر الطوفي منحصرة في هذه الحرب ولا فيما فعله النصارى من خراب البلاد والمدن، والتجبر والفساد في الأرض الإسلامية، ولكن تعرض المسلمون وبلادهم إلى أمر عظيم لا يقل سوءًا عن الحروب الصليبية، بل هو أمرّ وأحلك من ذلك الأمر. هو غزو التتار الذين أسقطوا الخلافة الإسلامية ودمروا المدن العامرة، وقتلوا الأنفس البريئة، حتى سالت الدماء في كل موطن دخلوه، من شدة فتكهم بالعباد، وكثرة قتلهم لهم.

ففي سنة ٦٥٦هـ أي قبل ولادة الطوفي بعام واحد تقريبًا تعرضت دار الخلافة "بغداد" لهجوم التتار الذي غير معالمها وجمالها وبهاءها، وألبسها ثوب الحزن والهوان، بعد أن كانت منارة إشعاع العلم والمعرفة، ومركز المدنية والحضارة، ودارا للخلافة أكثر من خمسمائة سنة.

وكان دخولهم إليها بمساعدة وتدبير الرافضي الخبيث ابن العلقمي[1] الذي كان وزيرا للمستعصم بالله[2] آخر خلفاء بني العباس في بغداد فقد كان متعصبا لطائفته متحاملاً على أهل السنة، فجاء بالتتار ظنا منه أنه سيكسب بذلك التأييد لطائفته وستصبح له ولها السيادة والزعامة على غيرهم.

ولكن الله أخزاه وفضحه فلم يظفر من خيانته بما يسره، بل لقد ندم أشد الندم، لأنه فقد ما كان فيه من الصولة والعزة التي كان يتمتع بها أيام الخليفة العباسي، وأهانته التتار حتى مات مغموما[3].

---

(١) محمد بن أحمد بن علي أبوطالب مؤيد الدين الأسدي البغدادي توفي عام ٦٥٦هـ، وخلفه ابنه عز الدين محمد. (انظر البداية والنهاية ١٣/ ٢١٢، وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٢، والأعلام ٥/ ٣٢١).

(٢) أبوأحمد عبدالله بن المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر محمد بن الناصر العباسي. قتل سنة ٦٥٦هـ (انظر شذرات الذهب ٥/ ٢٧٠، والنجوم الزهرات ٧/ ٦٣).

(٣) انظر شذرات الذهب ٥/ ٢٧٠-٢٧٣، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٠٠-٢٠٣.

عندما دخل التتار بغداد قتلوا الخليفة ومن ظفروا به معه من العلماء، والوزراء، والقواد والعباد، حتى أن عدد القتلى بلغ ما يقارب ألف ألف نسمة، حتى سال الدم مثل الأنهر في الشوارع، وكثرت الجثث وأصبحت الخيل تدوسها من كثرة انتشارها في الطرقات، وفسد الهواء من رائحتها، وانتشر الوباء بسببها حتى وصل إلى الشام كما يقال[1].

واعتدوا على التراث الإسلامي في بغداد ورموه في النهر حتى أن ماءه اسودّ من كثرة تلك الكتب.

وبقي التتار فيها على تلك الحال يعيثون ويقتلون أربعين يوما، ثم رحل قائدهم هولاكو عنها وعين من ينوب عنه في حكم بغداد وما حولها.

وقد وصف ابن الأثير[2] هذا الحدث في كتابه الكامل في التاريخ (١٢/ ٣٦) وصفا مبكيا ومحزنا.

وبقيت بلاد المسلمين بلا خلافة إلى عام ٦٥٩هـ ثم نصّب المستنصر بالله[3] في مصر، وبقي حكم العراق تحت أيدي التتار طوال حياة الطوفي.

ولم تستقر الأمور إبان حكمهم بل كانوا متناحرين فيما بينهم على السلطة وهكذا كانت حالة العراق، بلد الطوفي فإنه إن سلم ولو قليلاً من أذى الصليبيين

---

(١) انظر شذرات الذهب ٥/ ٢٧٠-٢٧٣، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٠٠-٢٠٣.

(٢) علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، عز الدين أبوالحسن.

ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر. وسكن الموصل وتوفي بها سنة ٦٣٠هـ (انظر طبقات الشافعية ٥/ ١٢٧، والأعلام ٤/ ٣٣١).

(٣) منصور بن الظاهر بن محمد بن الناصر ابن المستضيء، وهو باني المدرسة المستنصرية كما سيأتي - إن شاء الله - ولي بغداد بعد وفاة أبيه. وكان حازما حسن السياسة. توفي ببغداد سنة ٦٤٠هـ (انظر الكامل في التاريخ ٩/ ٣٦٩، والأعلام ٧/ ٣٠٤).

فإن هؤلاء التتار قد جعلوا حاله وحال أهله أسوأ من حال بقية المسلمين مع الصليبيين في الشام ومصر.

ولم يكن أذى التتار وهجومهم وحروبهم مع المسلمين مقصوراً على العراق بل امتد ذلك إلى الشام فعبروا نهر الفرات أيام حكم آخر سلاطين الأيوبيين ووصلوا إلى حلب عام ٦٥٨هـ وحاصروها ثم سلمت إليهم بشرط الأمان فخانوا العهد وفتكوا بالمسلمين وفعلوا قريبا من فعلتهم في بغداد، ثم دخلوا دمشق بيسر وسهولة ودون مقاومة[١].

ثم كانت بينهم وبين الظاهر بيبرس[٢] موقعة عين جالوت التي انتصر فيها المسلمون نصرا محققا ولاحقوا التتار حتى أخرجوهم من حلب[٣]، واستمرت الحرب بين المسلمين والتتار حتى بعد انتهاء الحروب الصليبية بل استمرت إلى ما بعد وفاة الطوفي سنة ٧١٦هـ.

وفي أثناء تلك الحروب الصليبية والترية لم تسلم البلاد الإسلامية من الانقسام والاختلاف والاقتتال بين السلاطين، بل شهدت تلك الفترة كثيراً من التمزق والاختلاف، كما حصل من الأيوبيين فيما بينهم والمماليك الذين انتقلت سلطة الأيوبيين إليهم ابتداء بمصر سنة ٦٤٨هـ. وأصبحت مصر بعد سقوط بغداد

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٣/٢١٨-٢٢٠، وشذرات الذهب ٥/٢٨٧-٢٨٨، ٢٩٠-٢٩١.

(٢) بيبرس العلائي البندقداري الصالحي ركن الدين الملك الظاهر، ولد بأرض القبجاق وأسر فبيع في سيواس ثم انتقل إلى حلب ثم القاهرة، واشتري هناك، ثم صار للملك الصالح نجم الدين أيوب، ثم أعتقه، ثم كان أتابك العساكر بمصر في أيام الملك قطز، ثم دبر مقتل الملك وتولى السلطة.

توفي سنة ٦٧٦هـ (انظر النجوم الزاهرة ٧/ ٩٤، وفوات الوفيات ١/ ٢٣٥-٢٤٧، والبداية والنهاية ٣/ ٢٧٤).

(٣) انظر شذرات الذهب ٥/ ٢٩١.

مقرا للخلافة العباسية التي لم يكن لها أي سلطة تذكر، وإنما كان وجودهم مظهراً دعائيًا حرص سلطان المماليك على وجوده تسكينا لنفوس الناس وصرفا لهم عن التفكير في شرعية حكمهم. ولا أدل على ذلك من الإهانات والاعتقالات التي كان يلقاها الخلفاء من المماليك حتى أنه ليصل الأمر إلى عزل الخلفاء واستبدالهم كما أرادوا[1].

ولابد أن هذه الحوادث جميعا، قد أحدثت أثرا بارزا في الرأي العام للأمة وبالأخص العلماء، لأنهم هم الممثلون الحقيقيون لها، فتميزت تلك الفترة ـ فترة حياة الطوفي ـ ٦٥٧ - ٧١٦هـ ـ ببروز مجموعة كبيرة من العلماء العاملين المجاهدين في سبيل الله، وقفوا في وجه أعداء الإسلام من الصليبيين والتتار، فهذا ابن تيمية ـ رحمه الله [2] ـ يشارك في قتال التتار هو ومجموعة من أعيان المسلمين ضد التتار لما حاصروا دمشق، وسافر سنة سبعمائة إلى مصر ليستحث واليها على قتالهم، ويشارك في بعض المعارك ضدهم كمعركة "شقحب" سنة ٧٠٢هـ[3].

وللعز بن عبدالسلام والإمام النووي ـ رحمهما الله ـ مواقف جليلة في نصرة الحق سواء ضد التتار أو الصليبيين أو في القضاء على الفساد الضار بالمسلمين الناجم عن تساهل السلاطين[4].

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤/ ١٧٦ - ١٨٠.

(٢) سنأتي ترجمته في شيوخ الطوفي ـ إن شاء الله ـ.

(٣) انظر البداية والنهاية ١٤/ ٧/ ١٥، ١٦، ٢٣، ٢٤.

(٤) انظر حسن المحاضرة ٢/ ٧١، وطبقات الشافعية ٥/ ٨٤.

ولعل من الأمر الواضح الجلي أن كل من ينشأ في أوضاع مثل هذه الأوضاع لابد أن يتأثر بهـا، وتنطبع حياته بما تأثر به، ومن أثر الأحـداث المتقدمة: اهتـمام الطوفي بمحـاربة أعداء الإسلام بـاليد والقلم، وخـاصة النصارى الضـلال، لأنهم ينشرون فـكرهم وشبهـهم، ويجب التصـدي لهم وإبطال كيـدهم، ولذلك خص بعض كتبه لذلك، كما سيأتي.

ب- الحالة الاجتماعية[1]:

من البدهي أن تتـأثر الحياة الاجـتماعـية بالحـياة السيـاسية التي تحـيط بها، فاستقرار الأحوال الاجـتماعية مرهون باستقرار الأحوال السـياسية ويكون هناك مد وجزر كما يكون في الأخرى.

واختلاط المسلـمين بغيرهم من الكفار سـيكون له أثره في سلوك الفريقين، وقد اختلط بالمسلمين النصارى القادمـون من أوروبا والتتار الكفار الذين لا يؤمنون بدين ولا يعرفون أخلاقًا ولا فضيلة، فظهرت عادات غريبة، لأن الوافد يحمل معه عاداتـه، ومن عادة الكفـار التفـسخ والانحلال ولأن في المجـتمع الإسـلامي من تستـهويه تلك العـادات وينصهـر في بوتقة الآخريـن. لضعف دينه وتغلب نفـسه الأمارة بالسوء عليه.

كما أن نزوح القبائل والأسر من مكان إلى آخر أوجد اختلاطًا بين أجناس كثيرة من أجناس مختلفة طباعهم ومتفاوتة درجاتهم في التمسك بدينهم

obeikandi.com

ـ عز وجل ـ فقد اختلط الأتراك مع البربر، والأكراد مع الأقباط، والعرب مع العجم بسبب القلاقل والأحداث وسوء المعيشة التي أجبرت الناس على التنقل من مكان إلى اخر، ومن قطر إلى قطر. فكان كل عرق يحمل معه عاداته وتقاليده المغايرة لغيرها، ولديه من التقصير والبدع ما لم يعرفه المجتمع الذي نزل به. وكانت تتغلب تلك العادات والسلوكيات بحسب قوة أهلها وتأثيرهم في الناس كما أنه كان يقيم بين المسلمين عدد كبير من اليهود والنصارى والزنادقة الملحدين، مما سبب في وقوع الصراعات الفكرية والعقدية واستفحالها في ظل الحروب الصليبية والترية فأشغلت المفكرين والعلماء في المجتمع الإسلامي وعكف كثير منهم للتصدي لهذه العقائد الفاسدة والشبهات الخبيثة.

وساءت الأحوال الاقتصادية بين العامة والزهاد، وانتشرت الفاقة وعم البؤس وكثر قطاع الطرق واللصوص، واشتد الغلاء، وعمد الناس إلى الغش والخداع والحيل والاحتكار، والتطفيف في الكيل والميزان، فألف العلماء بسبب ذلك المؤلفات ليشاركوا في حل هذه المشكلة حلا إسلاميًا، ودعوا إلى النظر في مصالح العامة وفرض التسعيرات الجبرية عند اشتداد الغلاء، والضرب على أيدي المطففين والمحتكرين. من ذلك ما كتبه شيخ الطوفي وابن عمره، شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في كتاب الحسبة في الإسلام، والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرغبة في حين أن السلاطين وذوي الوزارات والوجاهات يعيشون في ترف ويذخ فقصور الأمراء، والأعيان فيها نم مظاهر المتعة والأثاث وسائر الممتلكات يشهد بذلك.

فالأمراء والسلاطين يستولون على أموال كثيرة أثناء الحروب، وخاصة في عهد المماليك فيتلاعبون بها ويقهرون الأمراء والنواب والموالين لهم الإقطاعات

الكبيرة، ويعطونهم العطايا الجزيلة، وكانت أوضاع قصورهم وخدمهم تنبئ عن الإسراف في الانفاق الذي لا يعرف ضابطًا ولا رادعًا، وكانوا يستحدثون من الأبهات ما لم يسبقهم إليه أحد من السلاطين الأقدمين.

بالإضافة إلى الاحتفالات الكبيرة التي أحدثوها عند تولي خليفة أو سلطان الملك، أو ولادة مولود للسلطان، أو زواج لأحدهم أو أحد الأمراء أو غير ذلك من المناسبات التي يحبون التعبير عنها بهذه الحفلات[1].

ومما يميز القرن السابع في عهد الفاطميين قبل ذلك أن المرأة كانت فيه لا تختلط بالأجانب ولا يسمح لها بذلك وقيدت باللباس الساتر وأبعدت عن المفسدات أو القرب منها، حتى أن بعض السلاطين كان يسلب حلي النساء اللاتي بدون أزواج ويضايقهن حتى يتزوجن بخلاف عهد الفاطميين الذي وصلت فيه المرأة من التحلل والاختلاط ومشابهة الرجال في بعض الملابس ما لم يقع في غيره من العصور[2].

ولا شك أن هذا الوضع الاجتماعي المضطرب، والعادات الاجتماعية الوافدة، وسوء المعيشة، واشتداد النزاع بين أهل القبلة، وكثرة البدع والمنكرات، وترويج العقائد الفاسدة، وغياب السلطة التي يهمها أمر الإسلام والمسلمين، قد أحدث اضطرابا شديداً في فترة حياة الطوفي، لعلي لا أبالغ في القول بأنه من أشد القرون فتنة واضطرابًا. حتى أنه قد سقط في وحلها كثير من العلماء والأذكياء الأفذاذ فحدث لهم من الأخطاء أو الانحراف ما كان. والله المستعان.

---

(١) انظر البداية والنهاية١٣/ ٢٣٢, ٢٣٣.

(٢) انظر البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٤، وشذرات الذهب ٥/ ٣٢٤.

جـ - الحالة الفكرية والثقافية:

تبين لنا مما أوضحنا في الناحيتين السياسية والاجتماعية الظروف الصعبة التي عاشها المسلمون مما يصعب معه التهيئ للنشاط العلمي، إذ يحتاج إلى استقرار وهدوء، وأنّى للمفكرين والعلماء أن يعملوا في جو الإرهاب الذي ساد الحياة في بغداد التي فقدت رياستها الفكرية والثقافية في سنة ٦٥٦هـ؟ وفي الشام ومصر التي داهمتها الحروب الصليبية وأشغلت الأمراء والعلماء عن التوجه إلى العلم والاشتغال به؟ إضافة إلى الصراعات الداخلية بين السلاطين والأمراء، من ناحية الحكم، والخلافات الفكرية بين الطوائف والفرق المتعددة. وإلى أن أكثر الكتب الإسلامية والعلمية في بغداد رميت في النهر. إلا أن الناحية العلمية لم تهن ولم تضعف، بل كادت تصل إلى درجة النبوغ العلمي في كافة التخصصات التي ميزتها عن غيرها في العصور المختلفة، وذلك يرجع إلى أنها كانت قوية متينة في العصور السابقة لهذا العصر، ولم يكن من السهل القضاء عليها.

فما هي إلا فترة وجيزة بعد غزو التتار لبغداد إلا وقد جعل الله بعد الضيق مخرجًا والشدة فرجًا، فاستقرت الأوضاع نوعا ما، وقل الخوف والفزع وتهيأت النفوس لطلب العلم، ولقي العلماء تشجيعًا من الأمراء، فأنشأوا دور العلم وأنفقوا على الأساتذة وطلبة العلم وأجروا عليهم الأرزاق من الطعام وغيره[1].

بل كان بعضهم يجلس بنفسه لطلب العلم وبخاصة الفقه والحديث[2].

هذه العناية وهذا الاهتمام دفعا بطلاب العلم إلى التسابق في مضماره والإقبال عليه بصدق، كما دفعا بالعلماء أيضًا إلى التأليف وحل عويص المسائل

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٣/ ١٣٩.

(٢) انظر شذرات الذهب ٥/ ٢٧٠.

والرد على النصارى وغيرهم ممن يريد النيل من دين الإسلام فحظي عصر الطوفي بنخبة من العلماء الأفذاذ في بغداد ودمشق ومصر والأندلس ألفوا عددا من المؤلفات في جميع فروع العلوم والفنون.

ومن دور العلم التي اشتهرت في ذلك العصر، وأسهمت في إبراز النهضة العلمية في بغداد:

١- المدرسة المستنصرية ببغداد: التي بناها الخليفة المستنصر بالله العباسي، وكمل بناؤها سنة ٦٣١هـ وافتتحت في تلك السنة، ولم يبن مدرسة قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة: من كل طائفة اثنان وستون فقيها، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب فقهي، وشيخ للحديث، وقارئان وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام، وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى، والنفقة بما فيه كفاية وافرة لكل أحد، ووقفت كثير من الكتب عليها[١].

٢- المدرسة النظامية: أنشأها نظام الملك [٢]، ابتدئ بعمارتها في ذي الحجة سنة ٤٥٧هـ وفتحت يوم السبت العاشر من ذي القعدة سنة ٤٥٩هـ[٣]، ثم توقفت عن العمل كغيرها عندما أغارت التتار على بغداد ثم لما دبت الحياة مرة أخرى في بغداد عادت للتدريس.

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٣/ ١٣٩.

(٢) هو الوزير الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي قوام الدين، كان من جلة الوزراء وكعبة المجد "كما يقال" ومنبع الجود، وكان مجلسه عامرا بالقراء والفقهاء أنشأ المدارس بالأمصار ورغب في العلم وحدث، قتله أحد الباطنية سنة ٤٨٥هـ. (انظر شذرات الذهب ٣/ ٣٧٣، والأعلام ٢/ ٢٠٢).

(٣) نظر وفيات الأعيان ٣/ ٢١٨.

أما في الشام فإن المدارس والجوامع والزوايا قد كثرت لأن رياسة العلم ومنارته قد انتلقت من بغداد بعد عبث التتار بها وقتل العلماء وتشريدهم منها ومن حولها من البلدان، وأصبحت دمشق والقاهرة تتجاذبان الرياسة والسيادة ومن تلك المدارس والجوامع في الشام:

١- الجامع الأموي:

وهو أشهر وأكبر مؤسسة تعليمية في ذلك الوقت، فقد كان به عدد من الحلقات التي تشتغل بالعلم وتهتم به، وفيه حلقات كثيرة لتدريس القرآن الكريم وعلومه، والحديث الشريف وعلومه. وبه عدد من المدارس هي: الغزالية، والأسدية (شافعية)، والمنجائية (حنبلية)، والقوصية والسفنية والمقصورة الكبيرة (ثلاثتها حنفية) والزاوية المالكية[١].

٢- المدرسة الأتابكية الشافعية بصالحية دمشق:

أنشأتها الحجة الأتابكية امرأة الأشرف موسى تركان بنت الملك عزالدين مسعود بن قطب الدين مودود بن أتابك زنكي المتوفاة سنة أربعين وستمائة للهجرة[٢].

---

(١) انظر الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٤١٢.

(٢) انظر الدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٢٩، وشذرات الذهب ٥/ ٢٠٧.

٣- **المدرسة الأسدية الشافعية الحنفية:**

أنشأها الملك المظفر أسد الدين شيركوه بن شادي بن مروان المتوفى سنة ٥٦٤هـ[١].

٤- **المدرسة الأصفهانية**[٢].

٥- **المدرسة الإقبالية التي افتتحت سنة ثمان وعشرين وستمائة**[٣].

٦- **المدرسة العادلية الكبرى بدمشق:** المنسوبة إلى الملك العادل محمد بن أبي الشكر أيوب بن شاذي المتوفى سنة ٦١٥هـ[٤].

٧- **المدرسة الصلاحية ببيت المقدس:** التي أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الأيوبي فاتح بيت المقدس ـ رحمه الله ـ المتوفى سنة ٦٥٩هـ [٥]، وقد كانت كنيسة من زمن الروم تعرف بقبر حنة أم مريم ـ عليها السلام ـ كما يقال ـ[٦].

٨- **المدرسة الجوزية:** التي أنشأها ابن الشيخ أبوالفرج عبدالرحمن بن الجوزي ـ رحمه الله ـ المتوفى سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة[٧].

---

(١) انظر الدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٥٢، ووفيات الأعيان ٣/ ٢٤٥.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٥٨.

(٣) انظر البداية والنهاية ١٣/ ١٢٩.

(٤) انظر وفيات الأعيان ٤/ ١٥٦، ٥/ ٧٨، وخطط الشام ٦/ ٨١.

(٥) انظر شذرات الذهب ٥/ ٢٩٩.

(٦) انظر الأنس الجليل ٢/ ٤١.

(٧) انظر الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٢٩، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٠٣.

وهناك عدد كبير من المدارس المنتشرة في الشام كالجادلية، والأوحدية، والمعظمية، والميمونية، والقيمرية، وغيرها[1].

وكانت القاهرة عامرة بدور العلم والعلماء والمكتبات الحافلة بمجالس العلم والأدب، وكان اهتمام الناس بالكتب أمر يسترعي الإنتباهاه، فالقاهرة غاصة بأسواق الكتبيين والوراقين وكذلك كان الحال في دمشق.

ومن الجوامع والمدارس المشهورة في القاهرة:

١) الجامع العتيق[2]: وهو من أكبر أماكن المدارس فقد كانت به عدد من الزوايا الفقهية كزاوية الشافعي، والمجدية، والصاحبية، والكاملية، والتاجية، والمعينية، والعلائية والزينية. وأدرك بعض العلماء فيه سنة ٧٤٩هـ بضعا وأربعين حلقة لإقراء العلم لاتكاد تبرح منه[3].

٢) جامع ابن طالون الذي كانت ترتب فيه دروس التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة، والقراءات، والطب، والميقات[4].

٣) الجامع الأزهر: ضم مقصورة كبيرة رتب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الشافعي ـ رحمه الله ـ ورتب فيها أيضا محدث يسمع الحديث النبوي والرقائق ... وسبعة قراء لقراءة القرآن الكريم [5].

---

(١) انظر الأنس الجليل ٢/ ٤٢-٤٨، والدارس في تاريخ المدارس الجزءان الأول والثاني.

(٢) جامع عمرو بن العاص.

(٣) انظر حسن المحاضرة ٢/٢٤٥، وخطط المقريزي ٢/٢٤٦.

(٤) انظر خطط المقريزي ٢/٢٦٥، وحسن المحا ضرة ٢/٢٤٩.

(٥) انظر خطط المقريزي ٢/٢٧٥، ٢٧٧، ٣٦٣.

٤) جامع الحاكم باب الفتوح أحد أبواب القاهرة، وكان شيخ الطوفي سعد الدين يدرس فيه[١].

٥) المدرسة الناصرية التي بنيت بجوار الجامع العتيق، وأصبح اسمها فيما بعد الشريفية وبها تولى الطوفي الإعادة في ولاية سعد الدين الحارثي كما سيأتي[٢].

٦) المدرسة المنصورية أنشأها الملك المنصور قلاوون أبوالمعالي سيف الدين التركي الصالحي المتوفي سنة ٦٨٩هـ [٣].

وفيها أيضا تولى الطوفي الإعادة في ولاية سعد الدين الحارثي كما سيأتي.

وذكر مؤلف الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد أنه كان بقوص في أيامه ستة عشر مكانًا للتدريس[٤] وذلك في أيام الطوفي الذي استقر بقوص فترة طويلة يقال إن له بها خزانة كتب.

وغير هذه الجوامع والمدارس كثير، كانت مصدر إشعاع للعلم في بغداد والشام والقاهرة ودمياط والصعيد، إضافة إلى المكتبات الكثيرة التي تضم آلاف النسخ والكتب المتكررة في الشام ومصر وقوص وبلاد المغرب والأندلس التي أعرضنا عن الحديث عنها مخافة التطويل.

لقد كانت العناية في القرن السابع الهجري وأول الثامن ـ فترة حياة الطوفي ـ بجميع أنواع المعارف النقلية والفكرية.

---

(١) المصدر السابق وستأتي ترجمة سعد الدين في شيوخ الطوفي.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر شذرات الذهب ٥/٤٠٩، والبداية والنهاية ١٣/١٧٨، ٣١٧.

(٤) الطالع السعيد ص: ٤٤

وتشمل النقلية: علوم القراءات وعلوم التفسير، والحديث والفقه وأصوله، وعلم أصول الدين واللغة العربية وأنواعها المتعددة وما يتصل بها.

وتشمل العقلية: الطب والكيمياء والفلسفة والرياضيات والفلك والنجوم والجغرافيا، وغيرها من المعارف والعلوم.

وبرع في كل فن من هذه العلوم نخبة من العلماء، بل لقد كان العالم يجمع بين عدد من أنواع العلوم المتعددة كما تيسر للإمام الطوفي ـ رحمه الله ـ.

فقد ألف في فنون متعددة كما سيأتي بيانه في الفصل القادم- إن شاء الله-.

ومع ذلك كله فقد كانت هناك أفكار أخرى غير الأفكار الإسلامية المذكورة لأن المجتمع أصبح خليطاً ـ كما سبق ـ من الزنادقة[1] والملاحدة[2] بالإضافة إلى الطوائف والفرق الأخرى مثل الاتحادية [3] ـ التي اشتغل الطوفي ـ رحمه الله ـ بالرد عليهم ـ والفلاسفة [4] والمعتزلة[5] والشيعة [6] بطوائفهم المتعددة، التي

---

(١) جمع زنديق وهو القائل ببقاء الدهر، ولا يؤمن بالآخرة، ولا بوحدانية الله. ثم أصبح يطلق على كل من أنكر أصلا من أصول العقيدة وفي الإلحاد عموما كما قال أبويوسف صاحب أبي حنيفة: من طلب العلم بالكلام تزندق...، وقال يزيد بن هارون: "من قال إن القرآن مخلوق فهو زنديق" اهـ.
(انظر لسان العرب ١٠/١٤٧، وخلق أفعال العباد ص١٤، وشرح الطحاوية ص٧٢).

(٢) جمع ملحد والملحد العادل عن الحق، ومن الإلحاد: التكذيب بالبعث والجنة والنار، (انظر لسان العرب ٣/٣٨٨، وتفسير القرطبي ١٥/٣٦٦.

(٣) الاتحادية: هم القائلون بوحدة الوجود من الصوفية. وحقيقة مذهبهم أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى ليس وجودها غيره، ولا شيء سواه البتة. وهم أتباع ابن عربي (انظر حقيقة مذهب الاتحادية لابن تيمية ص٢، ٤، ٥).

(٤) الفلسفة باليونانية: محبة الحكمة،والفيلسوف: محب الحكمة، والحكمة قولية وفعلية، والفلاسفة تطلق على مجموعة من اليونان والمنتسبين إلى الأديان أعملوا عقولهم حتى أنكروا الغيبيات وأصبحوا لا يؤمنون إلا بالمحسوسات. (انظر الملل والنحل للشهرستاني ٢/٥٨ وما بعدها).

(٥) سيأتي التعريف بها ـ إن شاء الله ـ ص: ٨٤.

(٦) سيأتي تعريفها ـ إن شاء الله ـ قريبا في مبحث مذهب الطوفي.

نشطت في بغداد وما حولها، ووقعت بينها وبين السنة فتن عظيمة في سنة ٦٥٥هـ وغيرها [١].

وانتشرت البدع والشركيات، خاصة حول القبور والمزارات المزعومة وتمكن التعصب الشديد والتقليد الأعمى من نفوس أصحابها، مثل الصوفية الباطلة. وأهل وحدة الوجود التي كان أثرها كبير في تهبيط همم المسلمين أيام الحروب الصليبية.

فهم يقولون لا فرق بين دين ودين لأن الله عام للجميع، وقد شاركوا النصارى في بعض عقائدهم كالحلول والاتحاد الذي هو أصل مذهبهم.

وممن عاش منهم في زمن حياة الطوفي عبدالحق بن إبراهيم المشهور بابن سبعين المتوفى بمكة سنة تسع وتسعين وستمائة للهجرة فقد وصل به الكفر إلى قوله حين يرى الطائفين بالبيت الحرام: "كأنهم الحمير حول المدار، وأنهم لو طافوا بي كان أفضل من طوافهم بالبيت" [٢].

ولقد أشغلت هذه الطائفة المسلمين في وقت هم أحوج إلى جمع الكلمة ضد عدوهم من النصارى والتتار.

وقد كانت مصر تعاني من هذه الطائفة أكثر من غيرها من البلاد وتكاد تتميز بذلك في القرن السابع الهجري لكثرة مشايخها والداعين لها، أمثال أحمد بن علي ابن إبراهيم الحسيني أبو العباس البدوي المتوفى سنة خمس وسبعين وستمائة للهجرة، وغيره [٣].

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٣/١٩٦.

(٢) المرجع السابق ١٣/ ٢٦١.

(٣) انظرالنجوم الزاهرة ٦/ ١٤٩.

وفي نفس القرن كان تعصب النصارى الافـرنج قد بلغ أشده، فقد أتوا إلى البلاد الإسلامية: الشام ومصر وأفريقيا والأندلس وهم يحملون الحقد الصليبي على الإسلام والمسلمين كما سبق في وصف الحالة السـياسية وكان بعض أفراد النصارى يعيشون تحـت ظل الدولة الإسلامية، ولما قدم الافرنج قلبـوا ظهر المجن للمسلمين وشاركـوهم في حرب المسلـمين والطعن في الإسلام، وإثارة الشـبهـات. وقويت شوكتهم وعمرت كنائسهم التي كانت مندثرة وأنشئت كنائس أخرى في البلاد التي استولوا عليها؛ فمن كنائس النصارى التي كانت بالشام في القرن السابع:

١- كنيسة القمامـة بالقدس الشريف ـ التي سموها كنيسة القـيامة ـ وهذه الكنيسة عندهم بمكان عظيم، ويقـصدونها في كل سنة في عـدة أوقات من بلاد الروم والافـرنج ومن بلاد الأرمن ومن الديار المصـرية والشـاميـة وسـائر الأقطار، ويزعمون أن حجهم إليها[١].

٢- كنيسـة المصلبيـة بالقدس الشـريف: التي أخذت من النصـارى في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي النجمي الألفي المتوفى سنة إحدى وأربعين وسبـعمائة للهـجرة [٢]. وجعل فـيهـا مسجـدا. فلما كان فـي سنة خمس وسـبعـمائة وصلت رسـالة من جهـة ملك الكرج ورسل من جـهة صـاحب قسطنطينية إلى نائب الملك الناصر المشار إليه، وسألوا إعادة الكنيسة لهم، فلما توسلوا وتشفعوا في ذلك أعيدت لهم وسلمت إلى رسلهم[٣].

---

(١) انظر الأنس الجليل ٢/ ٥١، ١/ ٣٠٣، ٣٠٩.

(٢) انظر النجوم الزاهرة ٨/ ٤١، ٩/ ٣٢٥.

(٣) انظر الأنس الجليل ٢/ ٥١.

٣- كنيسة الزهري بمصر التي هدمت عدة مرات، وأغلقت في عهد الملك محمد ابن قلاوون ـ رحمه الله ـ سنة سبعمائة من الهجرة[١].

٤- كنيسة الحمراء.

٥- كنيسة البنات.

٦- كنيسة أبي المينا.

٧- كنيسة الفهادين بالقاهرة.

وكل هذه في مصر وتعرضت للخراب في يوم خراب الكنائس في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون المذكور.

أما اليهود فقد كانت لهم عقيدتهم ومذاهبهم الباطلة وكانوا ينشطون متى سنحت لهم الفرصة ويعملون في خدمة الأمراء ونحوها حتى منع الملك الناصر محمد بن قلاوون من استخدامهم وأمر بأن لا يلبسوا الثياب الفاخرة وأن تكون لهم الذلة هم والنصارى.

ولقد وصل الحماس في التصدي لأهل الكتاب وخاصة النصارى ذروته ورأى المسلمون أن من حق الله على عباده رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه، ومجاهدتهم بالحجة والبيان، والسيف والسنان، والقلب والجنان.

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في الجواب الصحيح (١/ ١٣-١٤): "ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين، وبيان حقيقة أنباء المرسلين، ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين... وذلك أن الحق ـ إذا جحد وعورض بالشبهات ـ أقام

---

(١) انظر خطط المقريزي ٢/ ٥١٢.

الله تعالى له مما يحق به الحق ويبطل به الباطل من الآيات والبينات بما يظهره من أدلة الحق وبراهينه الواضحة، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة" اهـ .

لقد كان بعض المسلمين يتصدى للطاعنين في دين الله، وإذا لم يكن لديه القدرة على المناظرة ومقارعة الحجة ضرب الطاعن ليشفي بذلك غليله ويقول: هذا الجواب.

ولقد أثرت الحروب الصليبية في فكر المسلمين فسلكوا في الرد على النصارى طرقا عديدة منها:

المناظرات الشفوية التي تجرى بين العلماء وأهل الكتاب، والخطب التي تكون في التحريض على الجهاد والتصدي للنصارى الغزاة والترغيب فيه والترهيب من التقاعس عنه وألف في ذلك كله المؤلفات.

وكان العداء الشديد بين المسلمين والصليبيين دافعا قويا لكتّاب المسلمين على تتبع عقائدهم ومثالبهم وإبطال افتراءاتهم فألفوا في ذلك الكتب الكثيرة، مثل:

١- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: لابن تيمية ـ رحمه الله ـ.

٢- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة: لشهاب الدين أحمد القرافي[1].

---

(١) أبوالعباس أحمد بن أبي العلاء إدريس بن عبدالرحمن بن عبدالله بن يلين القرافي نسبة إلى قرافة بطن من قبيلة المعافر نزلوا مصر وقيل: إلى القرافة مقبرة بمصر، سكنها مدة. - وهذا ما رجحه هو بنفسه، - الصنهاجي ولد سنة ٦٢٦هـ، برع في الأصول، وبلغ مرتبة الاجتهاد وإن كان مالكيا من أشهر مصنفاته: "الفروق" في القواعد الفقهية توفي ـ رحمه الله ـ سنة ٦٨٤هـ. (انظر ترجمته الوافية في مقدمة كتابه "الأجوبة الفاخرة" بتحقيق الباحث).

٣- على التوراة اليونانية: لعلاء الدين الباجي[١].

٤- الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام. . . : للإمام القرطبي[٢].

٥- الدر المنضود في الرد على فيلسوف اليهود "بن كمونة"[٣] لابن الساعاتي[٤].

٦- الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية: للطوفي.

---

(١) الفقيه علي بن محمد بن عبدالرحمن بن خطاب الشافعي، ولد سنة ١٣٦هـ، مصري أصله من المغرب، سافر إلى الشام وسمع بها العلماء كان أقوى أهل زمانه مناظرة، ولايكاد ينقطع في بحث، له علم بالمنطق والحساب، ويقال: ما من علم إلا وله فيه مختصر، ناب في الحكم بالقاهرة، وتقشف في أواخر حياته توفي - رحمه الله - سنة ٧١٤هـ.

(انظر فوات الوفيات ٣/ ٧٣، والدرر الكامنة ٣/ ١٠١-١٠٢).

(٢) أبوعبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الأندلسي المفسر، كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزهاد في الدنيا، لا يعرف التكلف. له كتب كثيرة أشهرها التفسير.

توفي - رحمه الله - في منية بني خصيب في شمال أسيوط بمصر ٦٧١هـ ودفن بها في شوال من تلك السنة.

(انظر الديباج المذهب ٢/ ٣٠٨-٣٠٩، والأعلام ١/ ٣٢٢).

(٣) سعد بن منصور بن الحسين عز الدولة الكيميائي له اشتغال بالمنطق والحكمة، وله: تنقيح الأبحاث للملل الثلاث وهو الذي رد عليه ابن الساعاتي. توفي ابن كمونة سنة ٦٨٣هـ (انظر الأعلام ٣/ ١٠٢-١٠٣).

(٤) أحمد بن علي ثعلب مظفر الدين عالم بفقه الحنفية، ولد في بعلبك وانتقل مع والده إلى بغداد فنشأ بها، وكان أبوه ساعاتيا عمل ساعات على المدرسة المستنصرية، التي كان يدرس بها ابنه، وله مؤلفات في الأصول والفقه من أشهرها: نهاية الوصول إلى علم الأصول، ومجتمع البحرين.

توفي سنة ٦٩٤هـ (انظر الأعلام ١/ ١٧٥، وهداية العارفين ١/ ١٠٠، ومرآة الجنان ٤/ ٢٢٧).

ولم يقتصر الأمر في الرد على أهل الكتاب على ما سبق، بل ألهبت الحروب الصليبية، وطغيان النصارى حماس الشعراء، فاستخدموا الشعر نوعا آخر من السلاح ضد النصارى، ومن يطعن في الإسلام من اليهود، ومن ذلك: منظومة الأبوصيري[1] في الرد على اليهود والنصارى، وشرحها له.

وقد قيل في مدح الملوك والسلاطين والأمراء الذين يقومون بحرب النصارى والاستنجاد بهم، والدعاء والابتهال إلى الله، وطلب النصر على النصارى: الشعر الكثير[2].

مما سبق تتبين لنا الصورة الواضحة لعصر الطوفي وما فيه من أحداث وسلوك وثقافة، وفكر، دفعته ـ رحمه الله ـ إلى المشاركة في هذه الأمور التي جعلت الحاجة ماسة إلى من ينقذ الناس من هذه المهلكات ويصلح حالهم، وقد أدى ـ عفا الله عنه ـ دوره على حسب ما استطاع.

والله الموفق.

---

(١) أبوعبدالله محمد بن سعيد بن حماد بن عبدالله الصنهاجي المصري الأبوصيري نسبة إلى بوصير بمصر أمه منها وأصله من المغرب، ولد في بهشيم من أعمال البهنساوية، وهو شاعر الصوفية وصاحب البردة المشهورة في المولد النبوي وله قصائد أخرى. توفي سنة ٦٩٥هـ. (انظر فوات الوفيات ٣/ ٣٦٢-٣٦٩، وشذرات الذهب ٥/ ٤٣٢).

(٢) انظر من الشعر في الحروب الصليبية كتاب: فوات الوفيات (٢/ ٧, ١٥) والحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية لأحمد بدوي ص ٤١٤، وغيرها من الصفحات، وكتاب الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي لمحمد سيد كيلاني، ص ٢١٤ وغيرها من الصفحات.